عدى بن زيد

نشأ عدىٌّ فى أسرة كريمة بالحيرة ، وكان أجداده أصدقاء لملوكها الذين أولوهم ثقتهم وعطفهم . وكان جده حماد أول من تعلم الكتابة ، وكتب للنعمان الأكبر. وقد توثقت صلته بمرزبان الحيرة فروّخ ماهان ، حتى عهد إليه بتربية ولده زيد من بعده ، وقد عمل المرزبان بوصية صديقه . وكان زيد الطفل يجيد العربية فوجهه المرزبان لدواسة الفارسية والتكلم بها ، ثم أوصى به خيراً عند كسرى ونصح بأن يجعله على البريد فى حوائجه ففعل ، ولم يكن كسرى يفعل ذلك إلا بأولاد المرازبة . وهلك النعمان، واختلف أهل الحيرة فيمن يولىّ من بعده إلى أن يعقد كسرى الأمر لرجل ينصبه ، فأشار المرزبان عليهم بزيد بن حماد ، فكان ملكا على الحيرة إلى أن نصب كسرى المنذر بن ماء السماء .

ونشأ عدىٌّ بن زيد طفلا فى الوقت الذى كان أبوه ملكا فيه ، وكان رفيقاً لابن المرزبان ، يلعبان معاً ويتلقيان علوم الفارسية معاً فى الكُتّاب الفارسى ، وأصبح عدى وشاهان مرد ، ابن المرزبان ، كأنهما أخوان . ولما قويت الصلة بين كسرى والمرزبان عمل هذا على إلحاق عدىّ بخدمة كسرى كما فعل بأبيه من قبل ، فهو ينتهز فرصة إثبات كسرى له ولولده فى صحابته ، فيرجوه أن يلحق بأبنائه هذا الفتى العربى الذكى الذى تعلم الفارسية فأتقنها ، والذى يقول الشعر بالعربية . وكان عدى جميل الوجه – والفرس تتفاءل بالوجه الجميل – فلما كلمه كسرى وجده ظريف المحضر حاضر الجواب ، فأحبه وألحقه بديوانه ، فكان أول من كتب بالعربية فى الديوان . وعلا شأن عدى عند كسرى فكان يؤذن له عليه فى الخاصة .

وبينما عدى ينعم بما حظى به من عطف كسرى إذا بأعراب الحيرة يثورون على المنذر ، فإنه يعتدى على حقوقهم ، ويأخذ ما يريد منهم قسرا ، فهم يريدون خلعه ، وهو يحس ببغضهم له ، فيؤثر أن يتخلى عن عرشه ، وأن يعيش بقية

عمره فى أمن وسلام . ولكن زيداً والد عدى يصلح ما بين الملك وشعبه، ويرضى العرب برأى زيد على أن يكون له الحكم وللمنذر الملك . وأخذ عدى يتردد على الحيرة بين الحين والحين . والناس يرون فيه الرأى الناضج ويحسون نفوذه القوى عند كسرى، فيعرضون عليه الملك، ولكنه يأبى أن يكون ملكاً؛ لأنه لا يحب حياة الحكام بل يريد أن يكون حرًّا طليقاً ينعم بما ينعم به من نفوذ فى بلاط كسرى ويحيا الحياة التى يحبها بين الفرس، فإذا حن إلى بلاده استطاع أن يزورها متى شاء فيلقى من حب أهلها وتقديرهم له ما يدخل على نفسه السعادة والغبطة والبهجة الحقة بالحياة . ويشعر المنذر بما لعدى من مقام عند كسرى، وما له من حب فى نفوس العرب، فيعمل على تقريبه منه، ويتخذه صديقاً ويعهد إليه بتربية ابنه النعمان .

وكان للمنذر غير ابنه النعمان أبناء كثيرون يسمّون الأشاهب لجمالهم، وأظهرهم الأسود الذى تربى فى حجر بنى مرينا . فلما احتُضر المنذر أوصى بأبنائه إلى قبيصة الطائى وملّكه الحيرة إلى أن يرى كسرى رأيه . ويفكر هذا فى أن يغضّ النظر عن هؤلاء الأمراء الصبية، ويرغب فى أن يولى على الحيرة أميراً فارسيًّا . ولكن عدى بن زيد يذود عن العرب وهو فى بلاد كسرى . إنه يذكر للمنذر أنه منع الأعراب من أن يأخذوا ماأعطوه لأبيه من جمال الديات . ويذكر قوله : « لا واللات والعزى لا يؤخذ مما كان فى يد زيد ثفروق وأنا أسمع الصوت . » ثم إنه يريد أن يحفظ للنعمان الذى تربى فى حجره ولاية عرش أبيه وأجداده . ويسأل كسرى عديًّا عمن بقى من آل المنذر وهل بقى فيهم أحد فيه خير؟ فيجيبه : « إن فى ولد المنذر لبقية، وفيهم كلهم خير » . فقال كسرى : « إبعث إليهم فأحضرهم؛ فبعث فأحضرهم ثم أنزلهم جميعاً عنده » .

ودعا عدى النعمان فوعده بأنه سيملكه الحيرة، ولكنه سينتقص من قدره أمام إخوته وسيظهر لهم من المودة والاحترام مالا يظهر له، لأنه يريد أن يغترهم بذلك حتى يمكّن له عند كسرى . وجمع الأشاهب فأوصاهم بالتأدب على المائدة . وقال : « إذا دعاكم كسرى للطعام فالبسوا من ثيابكم أحسنها ومن زينتكم أعلاها، وتباطئوا فى الأكل وصغروا اللقم وتزروا ما تأكلون فإن الفرس قوم ذو مدنية وحضارة، وهم لا يأكلون مما يأكل العرب، إنهم يتذوقون الطعام تذوقا ولا يزدردونه ازدراداً » . قال : « وإذا سألكم كسرى، أتكفوننى العرب؟ قولوا

إنا نقدر عليهم ولكن لا نقدر على أنفسنا ، حتى لا يطمع فى أن يضرب بعضكم ببعض ، وحتى تظل مهابة العرب موفورة فى نفوس الفرس» . وخلا عدى بصاحبه النعمان فنصحه بأن يتجوّع وأن يدخل غرفة الطعام فى ملابس السفر ، وأن يسرع فى المضغ والبلع ويكبر اللقم ويزيد فى الأكل ، وألا يحفل بما حوله من مظاهر المدنية الفارسية المترفة . قال : «وإذا سألك : أتكفينى العرب؟ قل نعم . فاذا قال وإخوتك؟ فقل إذا عجزت عنهم فإنى عن غيرهم لأعجز» . ودخل الأشاهب على هرمزد ابن كسرى وقدّمهم إليه عدى بن زيد ، فأعجبه جمالهم وحسن زيهم ، ولفت نظره هذا الأحمر الأبرش القصير الذى لايحفل به عدى بن زيد كثيرا . ودخل هرمزد إلى غرفة الطعام ومعه الأشاهب فرآهم يأكلون كما يأكل أهل الحضر يتباطئون ويتأنقون ، عدا هذا الأحمر الأبرش القصير فقد جلس إلى المائدة وكأنه فى مخيمه ، فهو يُقبل على الطعام بشهية فيقطع اللحم بيديه ويزدرده ازدراداً ولا يكاد يلتفت إلى شىء إلا لما يتهيأ للانقضاض عليه . ونظر كسرى فأطال النظر إلى هذا الفتى ، والتفت إلى من حوله وقال بالفارسية : «هذا أصلحهم للملك» . ورفع الطعام وأخذ كسرى يسألهم فرداً فرداً عن العرب فيجيب كل منهم بما أملاه عليه عدى ، حتى إذا كان هذا الأحمر الأبرش القصير قال: «أكفيك العرب وإخوتى جميعاً» . فقام كسرى وألبسه التاج ونودى به فى البلاط ملكا على الحيرة .

وعاد عدى مع صاحب الملك وعاد الأشاهب ومن بينهم الأسود ووليه عدى ابن مرينا . وأراد عدى بن زيد أن يصفو الجو للنعمان وأن يزيل ما بالنفوس من ضغائن وأن ينزع ما فيها من غل ، فدعا ابن مرينا وأصحابه إلى طعام فى بيعة . وبعد الطعام قال له عدى بن زيد : « يا عدى إن أحق من عرف الحق ثم لم يَسْلَمْ عليه من كان مثلك ، وإنى قد عرفت أن صاحبك الأسود كان أحب إليك أن يملك من صاحبى النعمان ، فلا تلمنى على شىء كنت على مثله . وأنا أحب ألا تحقد علىّ شيئاً لو قدرت عليه ركبته . وأنا أحب أن تعطينى من نفسك ما أعطيك من نفسى ؛ فإن نصيبى فى هذا الأمر ليس بأوفر من نصيبك» . وقام إلى البيعة فحلف ألا يهجوه أبداً ولا يبعيه غائلة ولا يزوى عنه خيراً أبداً . فلما فرغ عدىّ بن زيد قام عدى بن مرينا فحلف مثل يمينه ألايزال يهجوه أبداً ويبغيه الغوائل مابقى .

وتوثقت الصلات بين عدى بن زيد والنعمان ، وكان هذا يستشيره فى أموره ويعمل برأيه . وقد بلغ من تأثر الملك بعدىّ أن ترك الوثنية واعتنق النصرانية

بنصيحته [1] . ولكن عديا لم يكن يطيل الإقامة فى الحيرة ؛ فهو من أصحاب كسرى الأقربين ، وهو يؤثر البقاء فى فارس حيث الترف الذى ألفه منذ صباه فينتهز ابن مرينا فرصة ابتعاد عدى بن زيد عن النعمان ليتقرب منه . وكانت السبيل إلى هذا التقرب ميسورة ؛ فقد كان ابن مرينا غنيا وكان يستعين بأموال الأسود ، فكان يبعث بالهدية تلو الهدية إلى النعمان ويتردد عليه ولا يترك مجلسه ، فاتخذ النعمان منه صديقا أمينا . ولما أحس ابن مرينا بتمكنه من النعمان أخذ يدس لعدى بن زيد ، فصوره وقد استعلى على النعمان لأنه صاحب الفضل عليه . وأحس أهل مجلس النعمان بما لابن مرينا من منزلة وبما لقوله من أثر فكانوا يتملقونه بالموافقة على آرائه وتأكيد ما يصدره من أن عديًّا لا يؤمن شره . ومهما تكن طبيعة الوسائل التى تذرع بها ابن مرينا فى الوقيعة بين الصديقين فإنه نجح فى السعى بينهما والإيقاع بعدىّ .

وبعث النعمان إلى عدى عند كسرى يدعوه لزيارة الحيرة فاستأذن فأذن له وما كاد يدخل الحيرة حتى أخذوه فألقوه فى محبس لا يدخل عليه فيه أحد وأدرك عدى بن زيد أن خصمه ابن مرينا قد أفسد ما بينه وبين الملك . فكتب إلى النعمان يشكو إليه سعى أعدائه به ، ويذكّره بما كان من أمر نصره له والأخذ بيده حتى علا العرش :

سعى الأعداء لا يألون شراً ... علىّ وربِّ مكة والصليب
أرادوا كى تمهّل عن عدى ... ليُسجن أو يُدَهْدَهَ فى القليب
وكنت لزاز خصمك لم أعرّد ... وقد سلكوك فى اليوم الخصيب
أعالنهم وأبطن كل سر ... كما بين اللحاء إلى العسيب
ففزتَ عليهمُ لما التقينا ... بتاجك فوزة القِدْح الأريب

ثم شكا ما لقى من الحبس والقيد ومصادرة الأموال، وقد أصبح بيته مقفرا إلا من زوجات أرامل هلكن من النحيب :

أحَنَّطى كان سلسلةً وقيداً ... وغُلاًّ والبيان لدى الطبيب

---

(١) تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء لحمزة الأصفهانى ص ٧٤ .

أتاك بأننى قد طال حبسى ... ولم تسأم بمسجون حريب
وبيتى مقفرٌ إلا نساء ... أرامل قد هلكن من النحيب
يبادرن الدموع على عدىّ ... كشنّ خانه خَرْزُ الربيب
يحاذرن الوشاة على عدىّ ... وما اقترفوا عليه من الذنوب

ثم يستعطفه ويعتذر إليه عما قد بدر منه :

فإن أخطأتُ أو أوهمت أمراً ... فقد يَهِمُ المصافى بالحبيب
وإن أُظلَمْ فقد عاقبتمونى ... وإن أُظلَمْ فذلك من نصيبى

وأخيراً يقول له إنه سيندم عليه إذا افتقده فى الشدة فلم يجده :

وإن أهلك تجد فقدى وتُخذَلْ ... إذا التقت العوالى فى الحروب

وكان كثير الضيق بهذه الأغلال التى شدوه بها . وقد زارته أمه فساءه أن رأته وقد أوثقوه وهو ينصحها ألا تقترب منه وألا تحاول معانقته، فإن المصفَّد بالأغلال لا يروق له عناق :

ولقد ساءنى زيارة ذى قُر ... بىَ حبيب لودنا مشتاق
ساءهُ ما بنا تبيَّن فى الأيـ ... ـدى وإشناقها إلى الأعناق
فاذهبى يا أميمَ غير بعيد ... لا يُؤاتى العناق من فى الوثاق
واذهبى يا أميم إن يشأ اللـ ... ـه بنفسى من أزم هذا الخناق
أو تكن وجهة فتلك سبيل النـ ... ـاس لا تمنع الحتوفَ الرواقى

ثم يخاطب إخوته طالبا منهم أن يغيثوه ويخلصوه من سجنه :

وتقول العُداة أودى عدىٌّ ... وبنود قد أيقنوا بغلاق
يا أبا مُسهر فأبلغ رسولا ... إخوتى إن أتيت صحن العراق
أبلغَنْ عامراً وأبلغ أخاه ... أننى موثق شديد وثاقى
فى حديد القسطاس يرقبنى الحا ... رس والمرء كل شىء يلاقى
فى حديد مضاعف وغلول ... وثياب منضحات خلاق
فاركبوا فى الحرام فكّوا أخاكم ... إن عِيراً قد جهّزت لانطلاق

وأخذ عدى يرسل القصيدة تلو القصيدة للنعمان مستعطفاً ، والنعمان لا يأبه له ، ويكتب الشعر لأعدائه ناصحاً تارة ، ومهدداً تارة أخرى فلا يلتفت إليه أحد منهم . وكان له أخ اسمه أُبَيٌّ كان قد ألحقه بديوان كسرى ، فكتب إليه شاكياً ما يلقاه من سجن وقيد . ورفع أُبَيٌّ أمر أخيه إلى كسرى فكتب إلى النعمان بأمره بإطلاقه . ولكن خليفة النعمان أرسل إليه بما كان من أمر كسرى ، ثم إن جماعة من خصوم عدى جاءوا يَعُدُون إلى النعمان وحدثوه بأنهم رأوا رسول كسرى يدخل السجن ويقابل عديًّا ، وأن الرسول فى الطريق إليه ، فخشى النعمان إن ترك عديا حيًّا أن يخرج من السجن فينتقم منه ، فأرسل إليه جماعة فغمّوه حتى مات . وجاء رسول كسرى فدخل على النعمان فأحسن وفادته وتلقى رسالته ثم أبلغه أن عديًّا قد مات .

ولم يكد ابن مرينا يتخلص من عدوه الأكبر عدى حتى أظهر النفور والبغض للنعمان ، فانه لم يكن يريده ملكا على الحيرة ، وإنما كان يسعى للأسود . وأحس النعمان بما كان من حقد ابن مرينا على عدى والإيقاع به عنده ، فندم على ما كان من قتله ، وأخذ ولده زيداً فأحسن رعايته ، ثم بعث به إلى كسرى راجياً أن يكون خلفاً لأبيه .

وقبل ملك الفرس زيداً وولاّه وظيفة أبيه . وكبر زيد وزادت منزلته عند كسرى ، وفى نفسه أن يكيد للنعمان انتقاماً لأبيه . وكانت لملوك العجم صفة من النساء مكتوبة عندهم ، وكانوا يبعثون إلى الأطراف فى طلبها ، ولكنهم لم يفكروا فى بلاد العرب لظنهم أنها خالية منها . ودخل زيد ذات يوم على كسرى فوجده يتحدث فى ذلك القول ، فقال له : «إن عند عبدك النعمان من بناته وأخواته وبنات عمه وأهله أكثر من عشرين امرأة على هذه الصفة» . وأراد أن يُحكم انتقامه فحدّث كسرى بأن شر شىء فى العرب ، وفى النعمان خاصة ، أنهم يتكرمون عن العجم . والتمس من كسرى أن يذهب بنفسه إلى النعمان حتى لا يغيبهن أو يعرض غيرهن ، فبعثه كسرى ومعه رسول من عنده . وأقبل زيد والرسول على النعمان فأبلغاه الرسالة . فقال : «أما فى مها السواد وعين فارس ما يبلغ به كسرى حاجته؟» فسأل الرسول زيدا : «ما المها والعين؟» فقال له بالفارسية : «كاوان أى البقر» . واعتذر النعمان عن تلبية طلب كسرى . فرجع زيد ومعه الرسول فحدثا الملك برفض النعمان ، وقال زيد : «إنى خبرتك يا مولاى بضنهم بنسائهم على

غيرهم وأن ذلك من شقائهم ، وإنى أكرم الملك عن مشافهته بما قال » . فسأل كسرى الرسول فقال: «إنه أجابنا بقوله أما كان فى بقر السواد وفارس ما يكفيه حتى يطلب ما عندنا ؟» فغضب كسرى ووقع فى قلبه منه ما وقع ، وقال: «رُبَّ عبد قد أراد ما هو أشد من هذا ثم صار أمره إلى التباب» .

وشاع هذا الكلام حتى بلغ النعمان ، فأصبح فى حيرة من أمره : أيحارب كسرى ذوداً عن الأعراض وهو لا يقوى على قتاله ؟ أم يبعث بزوجاته وبناته وأخواته إليه ، وهو ما يأباه الرجل الحر ؟ واستجار برؤساء العرب فلم يُجِرْه أحد منهم فليس منهم إلا خائف من كسرى طامع فى رضاه . فأودع أهله رئيساً من العرب ، ثم سار إلى كسرى الذى بعث يطلبه .

وقابله زيد بن عدى على قنطرة ساباط فقال له : أنْجُ نعيمُ إن استطعت النجاء.

قال : أفعلتها يا زيد ! أما والله لئن عشت لأقتلنك قتلة لم يقتلها عربى قط ولألحقنك بأبيك .

قال زيد : إمض لشأنك نعيم ، فقد والله أخّيت لك آخية لا يقطعها المهر الأرن .

ولما بلغ كسرى أن النعمان بالباب أمر بقيده وإلقائه فى السجن ، فظل به إلى أن لقى حتفه .

وهكذا انتقم زيد لأبيه الذى مهّد للنعمان بلوغ الملك ، والذى قال له وهو سجين :

نحن كنا قد علمتم قبلكم عَمَدَ البيت وأوتاد الإصار